

## عصمت سيف الدولة و المنهج الجدلي في قمة نظوره دياب أبو جهجة

لست هنا بصدد شرح مفهوم الجدل من الألف حتى الياء لأنني افترض أن قارئ هذه المقالة ملم بفكر أستاذنا الكبير و بالتالي باستطاعتنا الخوض مباشرة في محاولتنا الاجابة على بعض الأسئلة:

- اين هو النهج الجدلي اليوم و ما هي مكانته على مستوى المقاربات الفلسفية للسياسة في العالم؟
- ما هو أفق جدل الانسان واقعيا للنهوض بالفكر الجدلي بشكل عام؟

لنبداً بالقول أن الفكر المنهجي عموماً في ازمة و ليس فقط الفكر الجدلي. الانهيار الكامل للمنظومة الشيوعية في شكلها المؤسسي و ما رافقه من تهافت ايديولوجي دفع بمعظم الاحزاب الشيوعية في العالم الى التخلي عن الماركسية اللينينة و التحول الى نسخة مخففة من الاشتراكية المبنية على مقولات عامة و خلاصات تجريبية. و لا لوم في ذلك لأن اخفاق التجربة الشيوعية سياسيا كان مرده فعلا الى قصور منهجي. فالجدلية المادية في تركيزها على الدور المهيمن للعوامل المادية في تطور المجتمع و على أسبقية أدوات الانتاج و البنى التحتية على كل ما عاداها من عوامل اجتماعية و انسانية شكلت المبرر المعرفي لبناء بيروقراطي استبدادي و فاسد.

ان تحييد العامل الانساني في الحركة الاجتماعية أو اعتباره ثانويا لا بد من أن يقود الى تمركز القوة في يد قلة و تمركز القوة لا بد من أن يقود الى الفساد و الاستبداد. كذلك عدم قدرة الماركسية اللينينة نتيجة لمنهجها المادي على استيعاب المسألة القومية و فهمها فهما صحيحا ساهم في اسقط الاتحاد السوفييتي ليس فقط ايديولوجيا بل قوميا من خلال انتفاض قومياته للتححرر و في طليعتها القومية الروسية المهيمنة فيه. ان استفادة الغرب من هذه العوامل في صراعه مع الاتحاد السوفييتي لا يعني انها جميعا نتيجة لمؤامرة امبريالية. ضعف المنظومة الشيوعية كان ناتجا من عوامل داخلية استفاد منها الغرب لدق المسمار الأخير في نعش عدوه السياسي الأول.

الا أن الانتصار لم يكن سياسيا بحتا بل تم تقديمه على أنه انتصار للفكر الليبرالي أو النيو-الليبرالي. و كثر الحديث عن نهاية الايديولوجيات و عن الليبرالية في كونها الايديولوجيا الطبيعية التلقائية و الفكر الأوحد. و انعكس هذا على المستوى الفلسفي و العلمي عبر الابتعاد عن ما يسمى بالمنهج الكونية و التركيز على المقولات العامة و الخاصة و محاولة تاصيلها احصائيا لا فلسفيا. و مع أنني لست من أعداء العمل الاحصائي خاصة في مجال العلوم الاجتماعية الا أن الاحصائيات لا يمكن أن تشكل بديلا عن الفلسفة كما أن العكس هو صحيح. الاحصائيات و الفلسفة كلاهما ضروريان لتشكيل بناء معرفي واقعي في بعده الكلي و الجزئي.

ان رفض المناهج الكلية و استبدالها بالمقاربة الاحصائية المحدودة تحت حجة رفض التحجر الدوغمائي و تشجيع المرونة الفكرية و الدقة العلمية كلام حق يراد به باطل و تحجر دوغمائي بحد ذاته. و ما يختفي وراء هذا الموقف المهيمن في الوسط الأكاديمي الغربي هو محاولة للجم أي نزعة نقدية للبناء المعرفي الليبرالي و بالتالي للنظام الراسمالي المنبثق عنه في بعده المحلي و العالمي "المعولم".

انه اذن موقف دوغمائي لاعلمي يجعل من العلم نوعا من الثيولوجيا أو الفقه الليبرالي تهيمن عليه طبقة كهنوتية علمية مهمتها تثبيت الدعائم الفكرية و الايديولوجية للمجتمع الغربي كما هو قائم اليوم و مشروعه العالمي. و أنا لا أقول هنا أن هذه مؤامرة مدروسة و محبوكة فأنا لست من هواة نظريات المؤامرة. كل ما

في الأمر أن التيار الليبرالي في الفلسفة و السياسة و علم الاجتماع يهيمن مستفيدا من انتصار نظيره السياسي و الاقتصادي بينما التيارات الفكرية الأخرى تتقهقر أمامه حتى فكريا و منهجيا.

من خلال تحضيري لأطروحة الدكتوراة في إحدى الجامعات البلجيكية و تحت إشراف أحد كبار المفكرين الماركسيين السابقين تسنى لي أن ألاحظ كيف تتم عملية تشكيل المعرفة الليبرالية عن قرب.

أطروحتي موضوعها الحركة القومية العربية و مستقبلها و مشروعها الفكري و فيها قسم كبير مخصص للمنهج الجدلي و جدل الانسان و تصورت أن مفكرا ماركسيا كبيرا مثل أستاذاي المشرف لا بد له من أن يهتم تحديدا بالقسم الجدلي للأطروحة. إلا أن ما تبين لي هو أن أستاذاي منزعج من اهتمامي بمفهوم الجدل و يعتبر أنه مفهوم دوغمائي و التشبث به يقود نحو خسارة المكانة المحترمة التي يملكها في الوسط الأكاديمي العالمي. و بالتالي فقد أقنع نفسه بأن الدفاع عن مقولات مجتزأة و إعادة إنتاج ماركسية لا منهجية او نيو-ماركسية هو موقف أكثر علمية و ذلك علما منه ان ذلك الموقف يفتح له مجالات أوسع ليقبل في الصرح الأكاديمي العالمي. و هكذا ينتج الواقع السياسي و ميزان القوى نزعة فكرية تليفقية تحاول تجنب الخوض في التحدي المنهجي المعرفي و تفضل التقهقر نحو المنطقة الرمادية ما بين التأصيل العلمي و الابتذال السياسي.

هذا ليس فقط حال البحث العلمي بل هو كذلك حال التنظير الماركسي الجديد الذي يحاول طرح مقولات عامة رافضا الخوض في الاشكالية المنهجية معترفا بقصور الجدلية المادية و لكن رافضا سد ثغراتها و الانتقال الى مفهوم أكثر شمولية للجدل في مضامينه الانسانية.

هذا هو واقع الفكر الجدلي اليوم، متقهقرا أمام الاندفاع النيوليبيرالي و تعجرفه. يتبع في ذلك النزعة المنهجية في الفلسفة بشكل عام التي تواجه أزمة معرفية شاملة.

إلا أن المنهج الجدلي الذي قفز نوعيا من الهيجلية الى الماركسية لا بد له من أن يستقر على نسخته الانسانية التي استطاع من خلالها الدكتور عصمت سيف الدولة حل اشكالية العامل الأساسي في التطور الاجتماعي عبر تثبيته مركزية العامل الانساني. ان تلك المركزية هي الفارق ما بين الفلسفات المؤسسة للاستبداد و تلك المؤسسة للانعتاق!

أن اعتبار الهيجلية للمثل بمعناها الماورائي بصفتها العامل المركزي في التطور الاجتماعي و اعتبار هيجل ان الدولة هي التجسيد الأمثل لروح الشعب و انعكاس للمثال في حقبة تاريخية معينة و ان البيروقراطية كطبقة هي بالتالي أكثر الفئات الشعبية "تقدمية" كلها شكلت عوامل أساسية في التأصيل المعرفي للعسكرية الألمانية و من بعدها الفاشية المؤهلة للدولة و للقائد.

كما أن اعتبار الماركسية بان أدوات الانتاج هي العامل الأساسي في التطور الانساني و أن النشاط و الوجود الانسانيين يتمحوران حول تلك الأدوات عبر انقسام طبقي هدفه الاستحواذ عليها، دفع بالماركسية الى تهميش دور الفرد الانساني لحساب الطبقة و بالتالي اعتبار ديكتاتورية الطبقة أمرا طبيعيا و في نهاية الأمر تهميش كل الجوانب الأخرى للحياة الانسانية و كل الهويات الأخرى ما عدا الهوية الطبقيّة. هذه المقاربة المعرفية المادية الجدلية شكلت الأساس المعرفي للاستبداد الطبقي و فيما بعد البيروقراطية الايديولوجية الشيوعية.

ومن هنا يتميز جدل الانسان في انه يعتبر الانسان الفرد كائنا جدليا و العامل الاساسي في التطور الاجتماعي و لا يغيب دوره لحساب عامل ما ورائي (سواء كان المثال أو المادة أو السوق أو الالهة أو اي

عامل اخر) يقود تاريخه بصورة غيبية. فالانسان في فكر سيف الدولة هو القائد لمجتمعه و لوجوده و هو الذي يطرح في ذاته الاشكالية الجدلية ما بين واقعه و تطلعاته. بين ما هو كائن و ما يجب ان يكون وفقا للانسان نفسه. و نستخلص من هنا الاتي :

- لا تغييب لدور الانسان و لا تهيمش له و بالتالي من المستحيل تأصيل الاستبداد معرفيا في جدل الانسان بينما من الصعب تأصيل الحرية معرفيا في الماركسية و الهيجلية.

- الجدل هو طريقة تعامل الانسان مع الواقع بكل ما فيه و هو الطريق الوحيد للتطور و بالتالي فان معرفة الواقع و حرية تلك المعرفة و توفرها هي الخطوة الأولى للتطور و لا بد من تأمينها. و هنا يأسس جدل الانسان معرفيا للعلم و المقاربة العلمية و لديمقراطية العلم لا لكهونتيته و حصريته.

- بعد معرفة الواقع لا بد للانسان من أن يكون تطلعات و طموحات و اهداف و أن يعبر عنها لغيره من الناس في اطاره الاجتماعي لكي يشاركهم الجدل حول كيفية التوفيق بين الواقع و التطلعات و كيف يتم حل اشكالية التباين بينهما. و هنا ياصل جدل الانسان حرية الرأي معرفيا و كذلك ياصل حرية الصحافة و التواصل و ديمقراطيتها لا احتكارها. كما انه ياصل تعدد الاحزاب من تعدد الاراء و الحرية الحزبية. باختصار ياصل جدل الانسان التعددية معرفيا.

- بعد طرح الآراء و المشاكل و الحلول و تبادل المعرفة يسعى الانسان فردا و مجتمعا الى العمل و النشاط لحل الاشكالية الجدلية و محاولة تحقيق تطلعاته و لذلك لا بد له من حرية العمل الفردي و الجماعي و لا بد من تنظيم المجتمع بشكل يسمح باختيار الحل الأمثل و تطبيقه على المشاكل المشتركة ثم تقييم التجربة و اختيار حل اخر في حال الفشل أو تثبيت الحل في حال النجاح الى حين تقييمه من جديد و هكذا ياصل جدل الانسان الديمقراطية معرفيا و ياصل شموليتها كل الميادين و ليس فقط الميدان السياسي بل كذلك الاقتصادي و غيره من الميادين. و ذلك لضرورة توفر امكانيات حل المشاكل الجدلية للانسان و للمجتمع لا تمركزها بيد فرد او مجموعة محدودة من الأفراد.

ان تمركز القوة اي قوة ( راس المال، المعرفة، الرأي، التواصل، الخ) في يد فرد أو مجموعة أفراد عوضا عن المجتمع أو الشعب يعطل الجدل بحيث أنه يحرم المجتمع من امكانيات الاشتراك في حل المشاكل و التقدم. لذلك يقوم جدل الانسان على تصور "توزيعي" للقوة بحيث تكون القوة مشتركة بين ثنايا المجتمع بكل مكوناته و غير مركزة. ان اي تركيز القوة اي قوة سيولد استبدادا و تهيمشا و صراعا اجتماعيا لا بد من حله عبر ديمقراطية القوة ذاتها و هكذا ياصل جدل الانسان للاشكالية و الديمقراطية معرفيا.

أن توسيع رؤوس الاقلام التي ذكرتها يحتاج لاطروحة كاملة و ليس لمقالة. الا أن ما أردت قوله في هذا الصدد هو أن المقولات المعاصرة التي تحاول بناء توجه ديمقراطي شعبي عالمي في مواجهة العولمة و تمركز القوة السياسية و العسكرية و الثقافية و الاقتصادية في الغرب و تحاول القيام بذلك من دون أساس معرفي أو بناء على اسس معرفية تهيمش الانسان مصيرها الفشل حتما. عاجلا أم اجلا ستتقهقر ايدولوجيا أما البنيان الليبرالي الجديد المهيمش و ستلتحق بركب النسق العالمي و تلعب دور الماكياج النقدي الذي يطبل للعولمة رغم انتقاده لها. حركة مناهضة العولمة اذا لم تأصل نفسها منهجيا بشكل راديكالي ينفذ اسس النسق الراسمالي و الليبرالي قد تتحول الى ضمير العولمة لا الى السكين التي ستقطع دابرها. و العولمة بضمير اقدر على الاستمرار من عولمة مباشرة عاتية.

من هنا يشكل جدل الانسان برأينا طرحا مجددا للفكر الجدلي و تصورا معاصرا يستطيع الامساك بالتناقضات داخل النسق العالمي و دفعها الى أعماق نقطة طارحا بديلا ديمقراطيا فعليا و انساني محورا. و بالتالي بدلا للشطحات الثورية الرومانسية التي لا تستطيع الاجابية على السؤال الأهم : لماذا الحرية؟ و لماذا الديمقراطية و لماذا الاشتراكية؟ و بالتالي تتقهقر اما مراكز القوى العالمية فكريا و سياسيا في نهاية المطاف.

و في نهاية هذا المقال اسمحو لي بان أقول أن استعمال تعبير العصمتية في مكانه لا بل أنه ضروري. ففي المجال العلمي من المتعارف عليه تسمية المناهج العلمية على اسم من انتجها وعيا و معرفة. فهناك الداروينية و الكانتية و الهيجلية و الماركسية و هي تمتاز عن غيرها بأنها مناهج.

أما النظريات البحتة فتحمل عادة اسما يدل على مضمونها مثل النسبية و نظرية الفوضى و الكوانتية الى اخره. و ان كان فقيدنا الكبير رفض في حياته استعمال هذا التعبير و هو أمر طبيعي يدل على التواضع أكثر من كونه يدل على موقف فكري بحت تماما كما رفض عبد الناصر استعمال تعبير الناصرية، الا اننا اليوم و بعد عشر سنوات باستطاعتنا أن نقول و بالفم الملأن أن ثمة منهج جدلي انساني عالمي التطلع بدأ ينتشر حتى خارج الوطن العربي و سيعتبر يوما ما من المساهمات الكبرى في الفكر الفلسفي السياسي الاجتماعي الا و هو العصمتية.

و اسمحو لي أن أضيف انني عصمتي في منهجي العلمي و ناصري في موقفي السياسي النضالي و هما بالنسبة لي وجهان لعملة واحدة الأولى منهجية تأصل للممارسة معرفيا و الثانية نضالية تقود المسيرة و تترجم المنهج مشروعا اجتماعيا متكاملًا. فاذا كان من الطبيعي اعتبار وجود ماركسية- لينينية فلا شك أن عصمتية- ناصرية ستتمو في واقعها العربي و تشكل رافدا من روافد الوعي القومي التقدمي .